آه آو

سون هسي تشن

ولد سون- هسي- تشن في عام 1906 في مقاطعة تشكيانج. وزاول الكتابة منذ صباه. ومؤلفاته منتشرة بكثرة بين الشباب الصينيين، الذين يعجبون بقصصه النابعة من الحياة الريفية. وأحسن إنتاجه: الذهب المضروب، إكليل الزهور، إمرأة في الليل. وكتابه عن الحربذو الأجزاء الثلاثة: ميدان الحرب، والحرب، وبعد الحرب

[من كتابه "الصين الحية" ترجمها الى الإنجليزية ادجر سنو]

* * *

طوال النهار، ومنذ الفجر الباكر، انزوت آه آو تحت سريرها في الغرفة المظلمة الصغيرة، رأسها منحن، وجسدها ساكن، لاتجرأ حتى على إصدار أنفاسها. وعلى سفح جبل الأرجوان الأحمر، حيث تناثرت غياض من أشجار الصنوبر المعطر وغيره، انساب نهير نحو الحقولالعراء، وبقربه انتصب صف من البيت معظمها قديمة متهدمة. وكان هذا الموضع يدعى "قرية تأو" بالرغم من أن أحدا من السكان لم يكن يدعى تأو. وأقامت في أربعة من السبع منازل فيها عائلة "تشن"، وأفرد البيت القائم في الجهة الغربية ليكون هيكلا عائليا معدا للأرواح بينما برز في وسط الصف نزل جديد أنيق بالمقارنة الى الباقي، إذ أنه بني منذ ثمانين عاما، ويملكه "تشن" الغني.

وكانت آه آو مختبئة في المنزل السابع، وهو أحقر الجميع، يتألف من خمس غرف صغيرة، تسكنها عائلة "وانج". وفي الواقع كان نصفه مرهونا الى تشن الغني، الذي اقرض بعد موت وانج الشيخ أرملته أربعين ألفا من النقد لتدفعها لوليمة الجنازة وحفلة الدفن. فانكمشت نتيجة لذلك، مع ابنها الصغير الوحيد وابنتها آه آو في الطابق السفليمن الكوخ، وهو لاينتمي الى تشن الغني. وفي الغرفة المجاورة للمطبخ أو بالأحرى في ركن من المطبخ نفسه، إذ ان السرير كان

منفصلا عنه ببعض ألواح خشبية رقيقة، أخذت آه آو ترتجف وتكتم أنفاسها بفزع غامض.

وكان بعض من حجارة مسن ، وسلال خيزران فارغة ترتكز الى حـائط المطبخ الذي يصدر منه ضجيج لجب. فهناك نضدت أربع طاولات خشبية ومقاعد طويلة في جانبيها غصت الغرفة الصغيرة بمن يشغلونها. فهم يؤلفون بمجمـوعهم أكثر من ثلاثين رجلا لايشملون سكان قرية تأو من الرجال وحسب بل الـضيوف من قريتي "يو" و"الجدار الأبيض" المجاورتين. وجلسوا يحتسون النبيذ ويولمةن في نهم مفرط. وكان اغلبهم يرتدون قمصانا زرقاء أو بيضاء وسراويل، عاري القدام . أما تشن الغني، و"وو" التاجر الذي يحسن القراءة والكتابة، وكبيـر القريـة ذو الرأس الأشعر المبجل لسنه المتقدم، فكانو يرتدون أثوابا طويلة من الكتان. إنهـا مناسبة نادرة تلك التي أزارت هؤلاء الرجال البارزينذوي البذلات الطويلة مثل هذا المكان الحقير. وكان من الواضح أنهم يعلمون حق العلم أي شرف خارق للعـادة يخلعه ظهورهم في مكان الوليمة.

كانت الوليمة متواضعة لاتنطوي الاّ على اربع حال كبيـرة مـن اللحـم، والسمك، واللفت، والحساء منتشرة على كل مائدة، ولكنها تترع مرارا من جديـد، وتوف ى كلما فرغت. ويأتي فيما بعد دور نساء القرية في أن يطعمن.

كان كل شخص يحاول جهده أن يلتهم كتلا كبيرة من اللحم ويملأ كـؤوس الخمر دهاقا بدون اعتبار لآداب المائدة . فلم يكن وجودهم في الوليمة تعبيرا عـن نية حسنة، بل عقابا لأم ابنة سلوكها لاحياء فيه. فلا بأس اذن مـن إثقـال كاهـل الإرملة وانج بالنفقات! انه العدل يأخذ مجراه..

وفي الواقع أن المرأة البائسة لم تستطع أن تدبر المال لتزود هذه الوليمـة الشاذة الاّ برهن النصف الباقي من منزلها.. ولعل شخصا مفرط الحساسية يستطيع أن يلاحظ أن ما ينهشه الضيوف في مغارز عيدان الطعام لـم يكـن الاّ أشـلاء الأرملة وانج ودماها . فالوليمة ستسبب دمارها المطبق. ولكنها بهـذه التـضحية، ستنقذ حياة ابنتها، التي لايستطيع أحد أن ينك أنها ثير بريئة من الإثم. فبالرغم أن خطيئة من هذا النوع تحتاج بالضرورة الى شخصين كي تتم، الاّ أن قانون العادة

النافذ، بالرغم أنه غير مكتوب، جعلهاالمسؤولة الوحيدة، ومنح أي قروي الحق ان يهاجمها، ويهينها ويحقّرها أو يقتلها، كما يرى مناسبا. فبأية وسيلة تستطيع الأرملة إنقاذ حياة الطفلة سوى هذه الوليمة تقيمها على شرف القرويين المستائين، وتنـال بها عطف ورحمة تشن الغني، ووو التاجر وكبير القرية ذا الراس الأشعر علـى الأخص؟ وبالرغم من أن هذه النفقات ستوردها الهلاك في النهاية، الاّ أن الأرملة لم تجد منها مفرا..

ومنذ يومين، عند الظهيرة، أرسلت ابنها الى تشن فانحنى طالبا الرحمـة ورجاه أن يقرضه ثلاثين ألفا من النقد على أن يرهن عنده باقي منزل وانج. ثـم ذهب الصبي الى السوق ببناء على تعليمات والدته واشترى ثلاثـين رطـلا مـن اللحم، وأكثر من عشرين رطلا من السمك، وبوشل من اللفت، ومواد أخرى ممـا تحتاج اليه الوليمة.

ومنذ صباح اليوم السابق والأرملة وانج غارقة في أعمال التنظيف وتهيئة الطعام، وتحضير خمر الأرز، والعناية بمهام أخر، حتى أنها لم تكن تحظى بدقيقة واحدة من الراحة . وزادت مشاغلها عندما قدم الضيوف. فراحت تعمل بمفردهـا بغير انقطاع في خدمة الآخرين لتحفظ الأواني ملأى بالطعام وتصب النبيذ الحـار وكأنها تفرغ شرايين جسدها من دماها، ولكنها تحاول أن تنقب وجههـا بابتـسامة وتظهر بمظهر من يستمتع بواجبه بمنتهى الغبطة.

وهتف فلاح فظ: "لاتتردد ياأخي روث المحظوظ، فلسنا في مناسبة احتفال، بل في وليمة حرة. تبصر الأمر، انك لست مكلفا بردها؛ فكل اذن! وافعم نفسك!"

وأجاب روث المحظوظ: "أنت على حق، ايه! لم نتلكأ في الطعام؟ لنأكـل! فمثل هذه المناسبات نادرةحقا. في الواقع أن هذه الفتاة آه آو لاحياء فيهـا ولكنهـا لاتزال جميلة الطلعة. فكم من الفتيات حولنا من يماثلها ؟ حقا.."

فصاح ثالث: "كلما ارتفع عدد الفتيات أمثال آه آو نلنا مزيدا مـن الـولائم الحرة. انني شخصيا آمل بأخريات."

ماأكثر تبجحك يا "فا" العجوز! أنت أيها الشيطان الجائع للنـساء.. ولكـن لايغرب عن بالك الحقائق في هذه القضية. ان الفتاة اختارت بالرغم من أنفك شابا من القرية المجاورة ولم تخترك!"

- "فا العجوز، ها، ها!"

- "هو، هو! أي فا عجوز هذا!"

ولم يبد على الأرملة وانج أنها تدرك معنى هذه التلميحات، ولكنها صـبت اهتمامها على شؤون خدمتها وفي إرغام ابتسامة على وجهها، فلـم تعـبس مـرة واحدة. ولكن آه آو سمعت وارتجفت وازدادت انكماشا بالحائط. ولم تدر فيمـا إذا كان الشعور الذي خبرته ذلّة أو فزعا أو سخطا أو مجرد حـزن ثقيـل. ولكنهـا أحست كأنما صخرة كبيرة ترهدها، واكتوى قلبها كأنما نفذ اليه سهام مـن حديـد محمي حتى الإحمرار . فمنذ بضعة أيام أسلمت نفسها بشجاعة الى المصير الـذي ينتظرها، أما الآن فانها لاتريد سوى أن تزحف منكمشة على نفسها بكل قواها.

وأخيرا ابتدأ كبير القرية في بحث القضية وقال بهدوء: "لنتكلم باختـصار، لعل هذا الأمر ليس خطيرا للغاية. فمن الطبيعي أن تتمنى فتاة ناضـجة الـزواج، أليس كذلك؟ ولكن من يستطيع أن يغفر لها أن تحب شابا في الكتمان،كما تعلمون، بدون علم أحد، وبغير الوسائل الرسمية المعتادة.

وهتف وو التاجر: "بلى! أيتها الأرملة وانج. ان هذا الأمر لاينجم الاّعقابا لأم عن خطيئاتها في حياة سابقة. فمثل هذه الإبنة ليست عارا على عائلتها وحدها بل على قرية تأو بأسرها. فأنت تعلمين جيدا أننا بحكم عاداتنا القديمة لانجـد مـا يكفر عن مثل هذه الخطيئة الا الموت. تذكري قضية الفتاة "كا أو" التي حدثت منذ ثلاثة أو أربعة أعوام في قرية الباب الحجري. لقد رجمت حتى الموت بمثل هـذه الجنحة . ألا تذكرين أنها دفنت بغير كفن؟ ليس في مثل هذا العقاب قسوة بل هـو العدل يأخذ مجراه لأنها أخلت بقوانين الأخلاق القويمة. وفضلا عن هذا، فأسوأ ما في الأمر أن مثل هؤلاء الفتيات يبقين حتى بعد موتهن يلوثن شرف الجماعـة. ان انتهاء حياتهن لايلاشي خطيئتهن- كلا، حقا، فكل انسان يعلم، أن الموت هو بداية تكفيرهن!"

- "ان ماقلته الآن هو الحق الذي ينكر. ان الموت لايليق الستار على الجريمة أبدا. ولكن، من وجهة أخرى فالخطيئة ليست جريرة الإبنة وحدها بل الأم حرية بالولام بتساهلها وبعجزها عن ضبطها. ومن المحتمل أيضا، في مثل هذه الحالة، أن الأم نفسها لم تكن فاضلة في تجسد للروح سابق، فدعيني أيتها الأرملة وانج أحذرك- ان عليك أن تكوني أكثر حذرا في هذه الحياة."

كان من فاه بهذا الكلام كبير القرية، ومن الغريب أن القول لم يغضب الأرملة، بل على العكس شجعها على أن تنفض ما عندها فتحركت الى الأمام بوجل ويداها تجذب طرف ثوبها البالي بعصبية : "نعم أيها الكبير المبجل - ان هذا هو الحق. فان اقترفت ذنبا فهذه خطيئتي. لست أعلم أية جريرة لاتغتفر قد ارتكبتها في وجودي السابق، ولكن يجب أن تكون كما قلت. فأنت على حق بأن الموت وحده ما تستحقه جريمة ابنتي الرهيبة من عقاب. ومع هذا.."

وانفجرت بالبكاء بغتة وأردفت: "ولكنني لاأستطيع أن أتكلم، فلست أقوى على مواجهة أحد، ولا أطلب سوى.. الرحمة! ابقوا على حياة ابنتي على الأقل."

كان طلبا طائشا، انه حقا رجاء شاذ، ولولا أن القرويين فرغوا منذ هنيهة من التهام طعامها للاقى منهم هزءا كبيرا. فهم يعتقدون أن عليهم تطبيق العدالة وقوانين الأخلاق حرفيا، ومن الطبيعي أن لايسمحوا بحدوث مثل هذه السخافة. ولكنهم لم يرغبوا أن يكونوا غلاظ الأكباد بعد أن دعتهم الأرملة وأطعمتهم وأبهجتهم وخصوصا أن بعضا منهم قدموا بغير دعوة. فقرروا الإمتثال للآراء التي يبديها تشن الغني ووو التاجر وذو الرأس الأشعر. والتزم الجميع الصمت الى أن أبدى تشن فتواه أخيرا: "انني أوافق على أن وو قد تحدث بحكمة، وكان على صواب في كل ما فاه به.ُ ان الموت لايليقي ستارا على الجريمة، بالضبط! فمن المحتمل اذن أو أنه يبدو لي، أننا لن ننتفع كثيرا بإزهاق روحها. حدثت الجريمة ، والأرملة وانج في طلبها الرحمة، ترجونا ايضا أن ننقذ كرامة زوجها السابق وهي تريد أن نبقي على حياة ابنتها. وأحسب أن هذا ممكنا، غير أننا حينذاك لانسمح لمثل هذه المرأة عديمة الأخلاق أن تستمر في ثلم صيت القرية المشرف. فيجب أن ترحل في الحال!"

ووافق كبير القرية على رأيه قائلا: "ان ما حدث قد حدث. وبالرغم مـن خلوه من الشرف الاّ أنه ليس من فائدة في قتلها. ومن الفـضل، كمـا قلـت، أن نطردها .. فترحل توا."

ولما عرض هذان الشخصان حكمهما كبح الآخرون الذين اعتبروا أنفسهم شبه محلفين ألسنتهم! ووافق الجميع على القرار. فانبثقت من وجه الأرملة الشاحب المتعب بسمة خالصة، وانحنت بخضوع للرجال الثلاثة الحكماء وشكرت الأعضاء الذين نصبوا أنفسهم محلفين بتذلل. وسمعت آه آو المختفية في الظلام هذا القرار ، ومن الغريب أنها لم تشعر أبدا بالسعادة لهذا الإمهال في تنفيذ الحكم فيها. كانـت تدرك تماما أن الحياة أعيدت اليها بأعجوبة، ولكن بالرغم من أن منظـر المـوت رهيب، الاّ أنها كانت أصغر من أن تشعر الخوف العميق منه، بينما كان النفي من قريتها، وهجر والدتها الى الأبد، وفراق أخيها، لتغرق في مستقبل غامض مزعزع يبدو لها أسوأ من الموت. هز الحزن جسدها، وحطّمه وهشّمه، حتى أنه لـم يعـد متماسكا بل كومة لاتزال تهتز بالحياة على صورة غامضة.

* * *

حدث منذ شهرين، في يوم من غرة شهر نيسان، مغمور برقة لاتوصـف، وفتور لايحتمل وغبطة تتغلغل الى الأعماق وتسم الرجال بعيون حالمـة، ناعـسة كانما أسكروا بنبيذ عجيب، أن عادت آه آو في طريقها الى البيت بعـد الظهيـرة قتدمة من قرية "يو" المجاورة. خيل اليها أنها لم تشاهد قط مثل هذا النهار الرائع. وشعرت بدفء جديد يغمر جسدها، وبنشاط غريب يستفزها كأنما ابتدات تحيا منذ حين. وكانت الحقول التي تكتنف الطريق موشاة بلون أصفر باهت وخضرة يانعة رطبة، والأشجار تتفتح للحياة والعصافير تبدو من أعرافهـا المبرعمـة تزقـزق بمرح. والدنسا تبدو بأسرها، الى أبعد مدى نظرها فتية ، غضرة، نامية، متيقظة، مرتقبة. وأحست بانسجام مع كل ما ترى وارتقاب. ماذا تتوقـع؟ انهـا لاتـدري، ولكنها وجدت نفسها تسير رويدا رويدا، وقدالتهب وجهها بنار كامنة. وتنبهت الى جسدها يهتز ويلتهب بملامسة نسيج ثيابها.

وناداها صوت من مكان مجهول: "آه آو!"

فتملّكتها الدهشة وشيء من الوجل، ثم توقفت واستدارت حولها ورمقت الحقول نحو شجرة الصنوبر المتشابك، وخلال الممر الصخري، ولكنها لم تر احدا.وحوم فوق رأسها زوجان من النسور، فتضرج وجهها، وفركت وجهها الملتهب ثم استمرت في طريقها.

وناديت مرة أخرى من قريب "آه آو" فتوقفت محيارة، ولكنها لم تر أحدا. واستمرت في طريقها، عندما سمعت الصوت ذاته، قريبا جدا، يتكلم "آه آو، انه أنا!"

فاستدارت مسرعة، ورأت رأسا يبرز من خلال الأشجار والخضرة النامية. ثم استبان رويدا رويدا شاب يرتدي ثوبا من الكتان الطويل، وقبعة حمراء أنيقة ذات أزرار.

كان في العشرين من عمرهتقريبا، وسيم الطلعة، ارتسمت على وجهه نظرة ارتياح. فعرفته آه آو. انه ابن "لي" الذي يملك دكانا في القرية المجاورة واسمه "آه هسيان" فقالت آه آو: "نعم، أهذا أنت؟ أهلكتني رعبا، فمن أين أتيت؟" ومع هذا لم يبد عليها عدم الرضى لظهوره.

فأجاب: "أنا؟ أنا؟.. حدث أن كنت قادما من المدينة فرأيتك من بعيد واختفيت لأفاجئك وأمزح معك."

فهتفت بمرح وهي ترفع يدها كأنما تريد أن تلطمه: "أيها الوغد الوقح! أترعبني حتى الموت!"

- "انني أعتذر يا آه آو من كل قلبي. ففي الواقع ان لدي شيئا مهما أود أن أحدثك عنه."

- "مثلا؟"

ولكن الشاب ارتج عليه فجأة فانتابه الوهن والوجل. وراح يتمتم: "أنا- أنا- أنا" ثم أمسك بيدها.

فارتدت آه آو الى الوراء مسرعة وقالت: "مامعنى هذا؟"

ولكن لأمر ما أحست بقدميها مسمرتين وجسدها يرتجف، كأنمـا أصـيب بصدمة، وبجوارحها تلتهب تحت ثيابها. وانهارت قواها، فلفّ ذراعيـه حولهـا، وجذبها نحوه، ثم قادها نحو الحقول. ولم تقو على إبداء أية مقاومة، فما كان ذهنها يعمل كعادته، بل إنها لم تكن تنتبه الى أنها تتحرك، فلم تصدر عنها أية نأمة. ولم تدر الاّ أنها تشعر بجاذبية وبهجة أعذب من أن تحتمل.

وجلسا تحت ذراع شجرة وارفة، ورأسها ملقـى علـى كتفـه وعيناهـا مغمضتان وأنفاسها تتسارع. فأحست بيده تلامس صدرها برقة، وتمر فوق فؤادها الخفاق. وشعرت بشفتيه تنهب شفتيها، وفجأة أحست بتوهج جسدي لم تخبره مـن قبل.

هتف وقواق وهو يحوم فوقها: "كاو.. كاو.." فذعرت ، وذكّرها بأن العالم لايزال قائما فارتجفت وهتفت: "كلا كلا ياهـسيان! لاتفعـل أرجـوك! ان أمـي ستضربني حتى الموت!"

- "كلا لاتنزعجي. ثقي بي، وآمني بحبي. كل شيء سيكون رائعا.. دائما هكذا."

وارتج صوته، بهزات غريبة، وعبارات لم تسمع مثيلا لهامن قبل ملكـت كيانه. وراح يداعب ذراعيها، ووجهها وعنقها. فكفّت عن المقاومة.

* * *

- "مابك يا آه آو؟" سألت الأرملة وانج ابنتها عندما عادت وقـد تملكهـا الإضطراب في عصر ذلك اليوم.."هل أصابتك حمى؟" ولمست جبينهـا المغطـى بخصلة قصيرة من الشعر "هل أصابك رشح؟"

وتمتمت آه آو كأنما تحدث نفسها: "لاشيء على الإطلاق. اننـي - اننـي أشعر فقط بانحراف بسيط."

واستلقت في سريرها، ولم تتحرك فـي رقـدتها مـدة طويلـة. أدركـت المغامرات والمخاطر والمصير الفاغر فاه لابتلاعها، ولكنها علمت أيـضا انهـا ستقابل آه هسيان كلما سألها، نعم، حتى ولو في الغد!

وتوقعت حدثا رهيبا يوشك بها، فأعدت النفس لاستقباله، وراحت بعد كـل مقابلة ترقب فضيحة جريمتها بكآبة فتتملّكها الدهشة كل مرة أن أحدا ما لن يتهمها بعد. وبالرغم من هذا أسلمت نفسها للنهاية المحتمة يوم يكتشف أمرهـا، ولكنهـا وجدت عزاء في أن حبيبها سيأتي للدفاع عنها، وينال معهـا العقـاب المحقـق. وتصورت نفسها، في لحظة عارها،تسير قربه بفخر وتقاسمه المصير الذي قـسم له. لقد وقع أخيرا ما كانت تخشاه ولكن ظروفه لم تماثل الصورة الخياليـة التـي تنبأت بها. وكان هذا قبل أن تقيم الأرملة وانج وليمتها الفاخرة بثلاثة أيام.

وراء جبل الأرجوان الأحمر تستريح تلّة صغيرة نسي اسمها منـذ زمـن بعيد. وفي منتصف الطريق على جنحها يكمن في خَمر من ورق الـشجر هيكـل لإله الجبل. وتحدق بها حقول يملكها أحد الأسياد العظماء. وقليلون من يجـرأون على المرور بطرقها المشجرة. والمكان يغمره سكون شامل محفوف بالأطيـاف، ولكنه ملجأ عطف للعاشقين الشابين.

وفي هذا اليوم انسلّ الى الغابة "لايو تيه" الحطـاب، ذو الوجـه المجـدر ليسرق حطبا. وكان قد جمع حملا وتهيأ لترك المكان إذ لمـح الـشمس الغاربـة ترشق برشاشها المورد الجدار الخلفي لهيكل الجبل. واجتذبه المنظر فجلس علـى عتبة الحاجز وتنهد، ثم أشعل لفافة وراح يحدق في الشمس.

ولكن ما الذي يسمع؟ أليس هذا صوتا؟ ورمى الغليون في حزامه، وأمسك بفأسه وانتصب واقفا ليبارز أي حيوان مفترس يحتمل أن يهاجمه. وارتقب بـضع دقائق متوترا مهتاجا. وفكّر في الهرب، ولكنه ارتد عنه متذكرا أن الهجـوم هـو أفضل الدفاع، والتقط حجرا يبلغ حجم بيضة الأوز، ورماه بكل قواه باتجاه أكثـف مكان في الغابة.

ولكن لدهشته، لم يكن وحشا مفترسا ما انبثقت عنه الأشجار، بل رجلا لم يتوقف ولم ينظر الى اتجاه لايو تيه، بل تلاشى كأنه الشيطان. وبالرغم من هذا فقد

رأى الحطاب منه ما يكفي ليعرف أنه آه هسيان. وتقدم بحذر من البقعة التي برز منها.

وفي تلك اللحظة وقع بصره على آه آو مستلقية وقد انتشر على شعرها الأسود قطع من ورق الشجر الأخضر، وارتسمت على وجهها نظرة لامبالاة. فأهاج المنظر حفيظة لايو تيه ذي الوجه الأجدر وثار ثائره. وحملق بعينين جاحظتين، ثم انحنى وصفعها بعنف: "ها! يا آه آو! أيتها الشيطانة! ان هذا لشيء جميل!"

ولم تنبس بحرف، بل رفعت عينين متوسلتين تطلبان الرحمة بفصاحة بليغة.

- "أيتها المتهتكة عديمة الحياء! كيف تأتين سرا الى هنا وتقابلينه؟"

وبقيت حوادث هذا المشهد والإهانات التالية التي قذفها بها لايو تيه الهائج غامضة في ذهن آو. إنها لاتستطيع أن تتذكّر كيف أنهاعادت تحت إشرافه الى منزلها يجلّلها الخزي، ولا كيف انتشرت أخبار غرامها في القرية في دقائق معدودة. لاتدري الاّ أن الأعين التي نظرت فيها فيما بعد كانت طافحة بالغضب، أعينا باردة تلمع فيها الكراهية. حتى والدتها حدجتها في غضب ومرارة، ولكن في أعماق أعماق تينك العينينكانت نظرة حزن لذيع حزت في قلب الفتاة. أما ضربات عصي الخيزران، أما اللكمات التي انهالت عليها، وأما الشتائم التي قذفت بها فلا شيء منها قد أوجعها، أو أخجلها، أو حتى وخزها بشيء من الندم. توقعت كل هذا، ولقد آن الأوان. لم يكن ما أصابها حدثا مباغتا ولكنه مصير محتوم. وهيأت نفسها لكل ما حدث، أما الظرف الوحيد غير المنتظر، والذي ساءها وأغمها هو أن حبيبها لم يقاس النتائج التي قاستها ولم يبن عليه أنه يحمل لها ذرة من الإهتمام.

وتقاطرت النساء ليأخذن نصيبهن من الوليمة قبل أن ينتهي الضيوف الرجال من احتساء آخر قطرة من خمرهم، بينما كانت آه آو لاتزال تنكمش على نفسها ملتصقة بالحائط، قلقة في مكمنها، جائعة مرتعشة. لا لأنها مقرورة، ولا لأنها تستشعر خوفا من الموت، ولكن لأن مرضا غير مسمى نشب في أعماقها.

ولم تكن النساء أكثر رقّة من رجالهن، فرحن كما فعل الرجال يغمـزن ويلمـزن بتعليقات تهكّمية لاذعة طاعنات بسلوك الأم وابنتها بقسوة.

وتكهرب الجو وبلغت المأساة ذروتها إذ ظهرت على حين غرة السيدة لي ، والدة آه هسيان البدينة. وقد جاءت ، كما بدا وشيكا، لالتعتذر عن الدور الـذي مثله ابنها في هذا الأمر، بل على العكس لتشتم الأرملة وانـج لـسماحها لابنتهـا بإغواء ابنها في اقتراف هذا المنكر. وحين أبصرت بالأم التعسة، أومـأت اليهـا وراحت تنتهرها بصوت عال:

- "أيتها المرأة الشقية! ان الإبنة سر والدتها! كيف لا يسفح ماء وجهك إذ تقابلينني؟ حقا! ان ولدي نقي ، طاهر، خير.. لقد سجد أمام صـورة كونفـشيوس وأدرك تعاليم هذا الحكيم العظيم. ومع ذلك، أغريته وحطمته أيتهـا الأم عديمـة الحياء مع ابنتك الفاجرة! انني صممت على الموت وإياك هذه اللحظة!"

وما كادت تفوه بهذا القول، حتى اندفعت نحو الأرملة وانـج وبـدا أنهـا مصممة على الإنقضاض وتحطيم رأسها بغريمتها. فاعتصبت النـسوة الـضيوف حولهما في شبه دائرة غير بريئات من استشعار رضى بـاطني لهـذا المـشهد، يحاولن أن يعزين ويفثأن من غضب السيدة لي الساخطة. ولم تلبث المرأة البدينـة أن نسيت قصدها الذي أتت اليه وشاركت في الوليمـة بحـرارة معزيـة نفـسها بتمتمات من حين لآخر: إها أهانت ولدي وأغوته، ومنذ اليوم لن يقو علـى رفـع الرأس عاليا فوق أترابه!"

وعندما انسحبت آخر ضيفة، خطت الأرملة العجوز ببطء نحـو المكمـن المظلم الصغير، تحمل مصباحا بيدها ونادت آه آو لتطعم، فجرت الفتاة نفسها بجهد ولكنها لم تكن تملك القوة الكافية لتقف منتصبة. حسبت نفسها منـذ لحظـة أنهـا تتضور جوعا فإذا بها لاتستطيع الآن أن تزدرد كسرة.

وفي الهزيع الثاني من الليل، لم تدلف الأرملة وانج الى فراشها بل كانـت تدور في الغرفة الصغيرة تلتقط اللوازم من هنا وهناك لترتّبها في المتـاع الـذي ستحمله آه آو معها إذ تترك القرية عند الفجر. وفي النهاية أغلقت الكيس وثبتته.

ان ليالي الربيع قصيرة ، فلم تلبث أن بدأت الديكة في الـصياح فأيقظـت الأرملة ابنها وابنتها، وأشعلت مصباحا، وناولتهما طعام الإفطار ثم اصـطحبت آه آو الى عربة يد وقفت بالباب: "اعلمي يابنيتي، أنني لـست أنـا التـي ارادت أن تهجرك- ولكنك أنت التي أفسدت حياتك." ولكن الهيكل المتداعي اهتـز منفجـرا بالبكاء. فراحت الأم تشد أزرها باستنشاق الهواء، وأردفت تحاول أن تبتسم برقة: "احرصي يا آه آو، وقفي منذ اليوم متماسكة على قدميك، ولن أجد سببا يـدعوني للقلق عليك. أما أنا يا ابنتي، فلك أن تحسبينني ميتة ليس لها وجود في هذا العالم. فإذا لم يقدر لنا أن نلتقي مرة أخرى هنا، فمن المحتمل أن نلتقي بعد الموت، فلنأمل على كل حال!"

وجلست قرب آه آو في العربة التي دفعها ابنها، حتى بلغوا شجرة سنديان عظيمة، على الطريق الرئيسي، على بعد نصف ميل من منزلها. فترجلت هنـاك، وودعت ابنتها الوداع الأخير ووقفت ترقب المصباح وهو يبتعد، كأنه آخر ذبالـة من الحياة في فضاء الموت الرحيب، وزحفت النقطة اللماعة غبشة الـى ظلمـة حالكة.

* * *